الحقيقة المحمدية والعلم الحديث

القرآن الحكيم : نور الحياة ، وسمو الخلود

للأستاذ حسنى طه شكيبانه

قلنا — بنور توفيق الله العظيم — إن لله العظيم أربعة كتب . . .

كتاب الكون المنشور آيات إبداع ، ومجلى عظمة ، ومظهر قدرة وحكمة بالغة . . .

كتاب الحياة فى إنسان جمع العالمين . . . عالم المادة وعالم الروح . . . عالم الملك وعالم الملكوت .

كتاب الكمال الحى فى محمد الكريم قائد ركب الوجود فى موكب المعرفة والنور إلى الله العظيم وموعدنا اليوم مع الكتاب الرابع . . .

كتاب الحكمة الهادية بأمر الله ، المسطور فى آيات ، المقروء فى كلمات . . .

وإنه لقرآن كريم ، كتاب مكنون ، لايمسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين . نزل به الروح الأمين — على قائد الوجود محمد الكريم — ليكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين وإنه لكتاب الله المحيط بكل الوجود : أرضه وسمائه ، مادته وحياته ، أزله وأبده ، ملكه وملكوته مافرطنا فى الكتاب من شىء . . .

وإنه لكتاب الحق — تبارك وتعالى — يحكى عن جلاله وعظمته ، وإبداع حكمته . . . ما يحلق بالأفكار فى أنوار حكمة الخلاق ، وصفاته الباهرة ، وما يملأ القلوب خشية من جلاله ، وطمأنينةً لذكره ، وسكنيةً لرحمانيته ، ورقيا فى معارج الكمال إليه . . . كما بدءوا منه نوراً وروحاً يعودون إليه . . . الله نور السموات والأرض . . إنا لله وإنا إليه راجعون الله نزل أحسن الحديث كتاباً مثانى تقشعر منه

جلود الذين يخشون ربهم بالغيب ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ... الا بذكر الله تطمئن القلوب . وأى حكمة حلقت فيها العقول أوستحلق ، ونطقت بها الألسنة أو ستنطق ، واهتدت بها الإنسانية أو ستهتدى ، وارتفعت بها الحضارة أو سترتقى ؟ فإنما هى سطور من هديه ، وغرفة من بحره ، وقبس من شمسه : قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين .

والإنسانية فى تلاطمها اليوم مع بحر الحياة ، وتقلبها مع النظريات ، وحيرتها مع الأفكار . . صائرة إليه ؛ فهو أمنها وعافيتها ، وهو غذاء عقولها ، ونور حياتها ، وهو حصن حضارتها ، ومعراج كمالها . . وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين .

وكل قضية فى فكر أو كتاب ، وكل مشكلة لفرد أو جماعة ، وكل تعاون لأمم أو لإنسانية ، وكل شأن لعقلاء مكلفين فى كوكب الأرض أو كواكب الفضاء ، فى زمن حاضر أو وافد ، فالقرآن — دستورها ومرجعها وإمامها المبين : مافرطنا فى الكتاب من شىء تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً .

يا على . . فى آخر الزمان فتن كقطع الليل المظلم . . قال يارسول الله ، وما المنقذ منها ؟ قال : كتاب الله تعالى . . فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر مابعدكم ، وحكم مابينكم . . هوالفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، فهو حبل الله المتين ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس معه الألسنة ، ولاتتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه . . هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا :

إنا سمعنا قرآنا عجبا — من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حلم به عدل ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم . . . »

أجل — وإنه لكتاب أدب وبيان ، وسياسة وقانون ، وحكمة وصفاء ، وتشريع وقضاء ، وتربية وسلوك ، واجتماع واقتصاد ، وإنسانية سعيدة ، وقلب مشرق محلق فى رحاب رب الوجود : ما فرطنا فى الكتاب من شىء . . .

قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله . فعلى هذه الانسانية المنطلقة نحو آفاق الوجود ، والباحثة عن أسرار الوجود ، أن تنبعث فى نوره وهداه ، فهو مفراجها الأسنى ، وصراطها المستقيم :

وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين . فلتقف كل العقول فى كل مكان لتسمع نداء الحكمة الهادية من رب الوجود الأعظم : تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً .

ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . . .

ومن هنا نبدأ . . من نور القرآن نستمد ضياء الحياة فى موكب المعرفة والحضارة ودفعة الهدى نحو المجد والكمال . . فى أرضنا هنا ، ومن فوق السموات هناك فى مقعد صدق عند مليك مقتدر . . .

والعالم اليوم فى اضطرابه يتطلع إلى الملجأ الآمن ، والمنقذ الهادى من جحافل الظلام المحيطة به . . جحافل الظلم والضلال . . والإباحية والإلحاد ، والحروب والأحقاد .

وبيد المحمدين (وحدهم) رحيق الهدى ، ونور الحياة ، ومجد الخلود ...

شهد بذلك فلاسفة العالمين — مسلمين وغير مسلمين .

وفى ذلك يقول — كاتب انجلترا الأكبر (برناردشو) : إنه لن يمر القرن العشرون حتى تعتنق الإمبراطورية البريطانية الإسلام ..» وغيره يقول نظير ذلك :

ويقيننا — والحمد لله — أنه لن يمر وقت طويل حتى يعم نور القرآن آفاق العالمين .

فلينظر قادة العروبة والإسلام كيف يقدمون هذا الشفاء ، ويمنحون للإنسان هذا اليقين والضياء . . .

إن علينا أن نعد أنفسنا — على تقوى من الله ورضوان — لنعد طاقاتنا الهادية المهدية و كتاب وقلم وبيان ، لأفراد وجماعات كالنجوم — بأيها يقتدى الناس يهتدون .

وأول أساس لذلك أن نخلص لهذه الرسالة ، فنهبها عصارة أفكارنا ، ويقين ضمائرنا ولننتظر بعدئذ السعادة والخلود . . .

والجمهورية العربية ـ بحمد الله ـ حصن الإسلام ، ومهد حكمة القرآن ، وموئل النور المحمدى وليس من المصادفة أن تكون منذ القدم — مهبط الحكمة ، ومجال الهداية ، ومسرى الأنبياء ، وحصن الحضارة منذ الفراعين ، ثم العرب الغرّ الميامين ، هداة الحياة ونور الوجود بأمر الله العظيم .

وليس مجرد مصادفة — أن تقوم بحراسة التراث الفكرى الإنسانى على مدى الأجيال من قبضة التتار المتوحشين ، ومن حماقة الصليبيين المجرمين ، الذين جاءوا يتسترون فى الصليب والمسيحية لاستعمار الشرق ونهب خيراته ، والقضاء على تراثه الفكرى الرشيد .

وليس مصادفة أن تختصها العناية الإلهية بفهم القرآن وعلومه ودراساته ومعاهده ثم ينبعث منها على مدى الأجيال كبار رجالات الفكر والإصلاح ، وأخيراً ينطلق منها الزحف المقدس مع ثورتها فى ٢٣ يوليه لتحرر العالم الأسيو فريقى ، وتنقذ العالم بأسره من ضلالاته وأحقاده وفوضاه ، ولتقدم له الشفاء والضياء . . .

فمصر كنانة الله فى أرضه ، ومشرق الحضارات ، ومبعث الهدى فى الخافقين ، وهى على موعد مع القدر — كما قال جمال الشرق الملهم . لتخط بيد القدرة صفحة الحضارة القادمة .. حضارة المحبة والحق والسلام ... فى نور القرآن الحكيم وهداه ... كتاب الحكمة والخلود .

تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ... قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين فهيا فى موكب النور الأقدس ، وركب الزحف المقدس لنقود العالمين فى يقين القرآن وضياه : يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ، ودين الحق ليظهره على الدين كله . . .

فكيف يتم ذلك بنور توفيق الله — ؟.. ذلكم بعض الأحاديث القادمة بتوفيق الله العظيم .